

نفحات القرآن

[323] ا مالک الملک قال المفسرون : إن الآیة الأولى نزلت بعد فتح مکة ، أو حينما كان النبي الكريم (صلى ا عليه وآله وسلم) مشغولا بحفر الخندق قُبيل معركة الأحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد إعتبر المنافقون ذلك تخيلات وتكهّنات وتشبّثاً بالمحالات(1). وفي هذه الأثناء نزلت الآیة المذكورة وأنذرت الجهلاء بأن ا مالک کلّ البلدان حيث قالت : (قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِي الْمُلْکَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) وليس الحكومات فقط وليس العزّة والذلّة بل (بِرِیْدِکَ الْخَیْرُ اِنَّکَ عَلٰی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیْرٌ) (2). وقدرة ا عزّوجلّ على کلّ شیء هي - في الحقيقة - دلیل حاکمیته على الأرض والسماء . ومن الواضح أن لمالکیة ا بُعداً عامّاً وحقیقیّاً ، في حين ما جاء في المورد الآخر في جملة (تؤتي الملک من تشاء) يكون له بعد جزئي ومجازي . ولا دلیل على تحديد مفهوم الآیة بفتوحات الرسول الأکرم (صلى ا عليه وآله وسلم) أو عزّة المؤمنین وذلّة اليهود وما شاکل - كما یعتقد بعض المفسّرين - بأنّ للآیة مفهوماً واسعاً يشمل کلّ الحكومات وکلّ عزّة وذلّة ، وما قالوه فهو من مصادیقها الواضحة ، والجملة الأخيرة (اِنَّکَ عَلٰی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیْرٌ) هي في الواقع بمثابة الدلیل على هذه المالکیة الإلهیة العامّة والمطلقة . وواضح أن المشیئة والإرادة الإلهیة التي إستند إليها في هذه الآیة لا تعني أن ا یعزّز أو یذلّ أو یعطي الحكومة ویسلبها بدون حساب ، بل أنّّه وضع في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشیئة وإرادته .

1 - مجمع البیان : المجلّد 2 / ص 427 ، وتفسیر الفخر الرازي : المجلّد 8 / ص 4 . 2 - قال بعض اللغویین : الخیر والإختیار لهما مادّة واحدة ، والحسنات خیر لأنّ کلّ إنسان یختارها (التحقیق ، المفردات ، تفسیر المیزان في ذیل آیة البحث) .